Scientific Events Gate

Innovations Journal of Humanities and Social Studies

مجلة ابتكارات للدراسات الإنسانية والاجتماعية

IJHSS

https://eventsgate.org/ijhss

e-ISSN: 2976-3312

التّجديد عند إيليّا أبي ماضي (قصيدة الأسطورة الأزلية) مثالا

م. د بدور عبد السجاد خادم

وزارة التربية / العراق

Asm969152@gmail.com

الملخص : نشأ أدب المهجر بعيداً عن موطنه العربي الأصلي ,و كان له أدباؤه ونقاده ودارسيه , وهذا اللون من الأدب له أثره على ساحة التجديد على الرغم من بقاء بعضهم مقيدا في إطار القديم والرجوع إلى الموروث العربي, بيد أنّ غيرهم حلق بجناحيه في سماء التجديد محاولا التحرر من قيود الموروث بما يتواءم مع عصره وما يجعله قادرا على التعبير بحرية كبيرة, وفي هذه الدّراسة نحاول بيان أهم المظاهر التجديدية متخذين من قصيدة الأسطورة للشاعر أبي ماضي مثالا , فضلا عن بيان أثر الفكر الفلسفي والتأمل الذاتي في شعر الشاعر, هدف الدراسة :تعريف القارئ بطبيعة المدرسة المهجرية وأفكارها ومظاهر التجديد عندها , اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي, وقسمت إلى مبحثين الأول كان على محورين أوّلهما تضمن مدرسة المهجر وأنشطتها والثاني ونبذة عن حياة الشاعر والقصيدة ، وجاء المبحث الثاني دراسة تحليلية للقصيدة ,من نتائج الدراسة: اعتماد فن السرد وهو ما يناسب الأسطورة , تنوع القوافي في القصيدة وهذا يناسب فن القصّ.

الكلمات المفتاحية : التجديد، الأزليّة،الأسطورة ، إيليا أبو ماضي.

Renewal according to Elia Abi Madi (the poem The Eternal Legend) is an example

Dr. Budoor Abdel-Sajjad Khadem

Ministry of Education / Iraq

Asm969152@gmail.com

Received 21/01/2024 - Accepted 19/02/2024 Available online 15/03/2024

Abstract : The emergence of diaspora literature far from its original Arab homeland, and he had his own writers, critics, and scholars. This type of literature has an impact on the field of renewal, Although some of them remain restricted within the framework and refer to the Arab heritage. However, others soared with their wings in the sky of renewal, trying to break free from the constraints of inheritance in a way that was compatible with their era, and what made them able to express themselves with great freedom. In this research, we try to explain the most important aspects of innovation, taking the poem The Legend by the poet Abu Madi as an example, In addition to explaining the effect of philosophical thought and self-reflection

on the poet's poetry, the purpose of the study: introducing the reader to the nature of the Migrant school, its ideas, and its manifestations of innovation, The study was approved: on the analytical method, It was divided into an introduction that included the establishment of the diaspora school, an overview of the poet's life, and then an analytical study of the poem, One of the results of the study is the adoption of the art of narration, which is appropriate to the myth, The variety of rhymes in the poem is what suits the of art of storytelling.

Keywords: Renewal, eternity, legend, Elia Abu Madi.

المقدمة

الأدب ذلك الكون الرحب الذي يفرد فيه الأدباء والمبدعون أجنحة الحرية محلقين في عالمهم الخاص , الصفحة البيضاء التي يسطرون فيها أفكارهم ويودعونها خلجات أنفسهم , البحر الذي يستودعونه أسرارهم , التاريخ الذي يخطّون فيه تاريخ أممهم وبطولاتها , يأسرهم بسحره , ويتأثرون به , ويتفاعلون معه وبه يشكلهم ليعكسون شكله الجميل ؛ لذا كان محل اهتمامهم ومرتكز فكرهم ومنبع صورهم , وقد مرّ الأدب عبر تاريخه الطويل بمراحل متعددة شهد فيها اختلافات كثر , ولدّها العصر الذي ينشئ فيه أو يمر به , فلكل عصر ظروفه , وإذا وقفنا عند الأدب في العصر الحديث نجد أنّ الشعراء والأدباء ساروا فيه باتجاهات متعددة فمنهم من سعى على الحفاظ على القصيدة العربية الكلاسيكية من حيث الشكل والمضمون , ومنهم من سعى إلى الخروج عن هذا المألوف , ومنهم من أوجد لنفسه شكلا جديدا متحررا فيه من الوزن والقافية , ودراستنا هذه تسلط الضوء على أحدى تلك الاتجاهات الحديثة التي حاولت إدخال روح التجديد في الشعر العربي وهو شعر المهجر فقد حاول المهجريون إيجاد أساس يستندون عليه في توجههم الأدبي الإبداعي .

نظام الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي؛ لبيان نشأت المدرسة المهجرية، والمنهج التحليلي لبيان أهم مظاهر التجديد عند الشاعر.

مشكلة الدراسة

تحاول الدراسة الوقوف على أهم أسباب نشأة المدرسة المهجرية وبيان أفكارها وآرائها، ومبادئها التي شكلت المرتكز الأساس في انطلاقها ورغبتها في الخروج عن المألوف .

أسئلة الدراسة

1_ هل استطاع الشاعر إيليا أن يوظّف كل مظاهر التّجديد التي عرفها الشعر المهجري في أسطورته؟

2_ عُرف شاعر المهجر بأمله الذّاتي ونظرته الفلسفية أزاء الكون والحياة، فهل قصيدة الأسطورة تمثل فعلا نظرة الشّاعر و تأملاته أم أنه نطق بما يفكر به النّاس وما ينظرون إليه؟

3- هل خرج الشاعر في قصيدته عما ألفته القصيدة العربية؟

خطة الدراسة

قامت خطة الدراسة على تقسيمها إلى مبحثين، عنوان الأول: المدرسة المهجريّة ، و تضمّن محورين، الأول: المدرسة المهجرية وبيان أنشطتها , أما المحور الثاني فقد تضمن نبذة عن حياة الشاعر إيليا أبي ماضي وتراثه الأدبي , وجاء المبحث الثّاني دراسة تحليلية لقصيدة الأسطورة .

الدّراسات السابقة

من أهم الدّراسات التي تناولت شاعر المهجر إيليا:

1- إيليا أبو ماضي بين التقليد والتجديد لـ (محمود محمد سلطان).
2- أفق التجديد القافوي في تجربة الجداول لإيليا أبي ماضي لـ (عبد القادر رحماني).

وهاتان الدراستان قد تلتقي ببعض مطالب دراستنا وهو التجديد بشكل عام ألّا انها تختلف عنهما بأنها تناولت بيان مظاهر التجديد في قصيدة الأسطورة بشكل خاص.

المبحث الأوّل : المدرسة المهجرية

المحور الأوّل : المدرسة المهجرية و أنشطتها

شرعت جماعاتٌ من البلاد العربية في أواخر القرن التاسع عشر , بالهجرة ولاسيّما من سوريا ولبنان , وترجع هذه الهجرة إلى أسباب عديدة منها أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية , ويشكل العامل الاقتصادي أهم تلك الأسباب التي دفعت أبناء هذه البلاد إلى أن يغادروا بلادهم وينأوا عن أوطانهم , ويعيشوا الغربة و ألم الفراق , الذي أضنى نفوسهم وألهب مشاعرهم , وزاد من ارتباطهم بأرضهم , ومن بين تلك " الجماعات المهاجرة كانت طائفة من الشباب , الذين تتوقد بين جوانحهم قلوب متوثبة للحرية , وفي رؤوسهم آفاق رحاب من الفكر النير , والخيال الخصب ,أولئك كانوا من الرعيل المثقف الواعي , الذي عزَّ عليه أن يعيش أسير للظلم والعوز , فانطلق يبحث عن الحرية والاكتفاء" (Al-Nā'ūrī, 1966, p.17) ولا يريد البحث الخوض في الأسباب التي دفعت هؤلاء الأدباء للهجرة , فقد تناولتها بالبحث والدراسة العديد من المصادر , إذ ما يهمنا في هذا المحور هو تسليط الضوء ورفع النقاب عن الجانب الأدبي لهؤلاء الأدباء , الذين انقسموا في هجرتهم على قسمين : منهم من هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية , وهم ما يُسمون بشعراء المهجر الشمالي , ومنهم من هاجر إلى البرازيل , وقد عُرفوا بشعراء المهجر الجنوبي , وقد استطاع هؤلاء الأدباء شق طريقهم في تلك الأصقاع البعيدة , وأن ينشئوا أدباً خاصاً بهم على الرغم من الصعاب التي رافقتهم , إلى أن استوى ذلك الأدب على سوقه وصلب عوده , وأصبح له شكله الخاص وملامحه المحددة ,وصار له أدباؤه ورواده , وأصبح محطَّ استقطاب النقاد والدارسين , وقد تمثل هذا النشاط فيما سعى إليه أُدباء المهجر وشعراؤه من تأسيس الجمعيات، منها :

1_ الرابطة القلمية : تأسست عام 1920 ، حيث اجتمعت آراء جماعة المهجر الشمالي حول فكرة تقوم على ضرورة تأسيس رابطة تجمعهم أو توحدهم وتمثل جهودهم, فأسسوا الرابطة القلمية التي توضح أفكارهم واتجاههم الأدبي الذي لا يكتفي بظواهر الأشياء وإنما يبحث فيما ورائها , وقد كان للرابطة القلمية أثر كبير في نهضة الشعر في المهجر , مما أدى إلى ثورة أصحاب القديم عليها , وقد استطاعت الرابطة القلمية أن تثبت وجودها , حتى أصبح لها أدباؤها، ومنهم جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليّا, ونسيب عريضة، ورشيد أيوب، وندرة حداد، والريحاني وغيرهم , الذين صدرت لهم أعمال

أدبية توضح اتجاههم نحو التأمل في الوجود والنفس الإنسانية والطبيعة , والحياة وما فيها من قيم الخير والشر (Al-Dāyim, 1993, p.18) ولعل بعضهم كان له الباع الطويل في هذه النزعة ومنهم ميخائيل نعيمة الذي يرى أنّ الأدب رسول بين الأديب وغيره , والذي يستحق أن يدعى أديبا هو الذي يمدّ رسوله بما في قلبه , ويقول : " إن الرابطة القلمية ما كانت لتقدم هذه المجموعة إلى قرّاء العربية لولا اعتقادها بأنّها قد اتخذت من الأدب رسولا , لا معرضا للأزياء اللغوية والبهرجة العروضية , وقد تكون مخطئة في ما تعتقد , لكن أخلاصها في الأقل يشفع بخطئها , فهي لا تدعي لهذه المجموعة أكثر مما تستحق" (Na'īmah, 1978, P.27) وقد كان لأدباء الرابطة نشاط واسع شمل جميع الاتجاهات الشعرية والفنون الأدبية " فقد نظموا الشعر وتفوقا فيه وأبدعوا في نظمه وانتقاء مواضيعه وقوالبه , وكتبوا نثرًا عاطفيًا وتصويريًا واجتماعيًا , فكان نثره شعرًا رائعًا ساحراً , وكتبوا في القصة أقاصيصهم ورواياتهم , ومن أجود ما عرفه الأدب العربي في فن القصة , وقد نهج أغلبهم المنهج الفلسفي , فكان أدب جبران وأبي ماضي ونعيمة ونسيب وعريضة_ خاصة هؤلاء_ يتميز بنزعته الفلسفية الروحية أو الاجتماعية, أو كلتيهما , وإنتاجهم الأدبي بمناحيه المختلفة قد ترك أثره البعيد في حياة الأدب العربي الحديث " (Al-Nā'ūrī, 1966, P.18-19) وقد قامت جماعة المهجر " بإصدار مجلة الرابطة القلمية واشترك في تحريرها جبران ونعيمة وعريضة وأيوب وغيرهم , وراحت الجماعة تنشر القصائد , وتكتب المقالات النقدية والدراسات الأدبية , تكتب عن أدب الشرق وتترجم للغرب" (Al-Ḥamdānī, 2014, P. 255), وبقيت الرابطة القلمية قائمة حتى موت جبران خليل جبران وغيره , وعودة ميخائيل إلى لبنان .

2_ جماعة العصبة الأندلسية : نشأت " في سان باولو عام 1933كان صاحب فكرتها شكر الله الجر الذي وجد عند ميشال معلوف الاستعداد للتنفيذ لتقوم العصبة مقام الرابطة القلمية التي انفضت من الشمال , وقامت هذه العصبة لتجدد الشعر العربي لكن بهدوء وفي غير عنف أو ثورة , كما أنّها لم تجعل من أهدافها قط الصلة تماما بيت الشعر الحديث والشعر العربي القديم , بل على العكس كانت راغبة في بقاء شيء يصل الماضي بالحاضر " (Al-Dāyim, 1993, p.19) وقد انضم إليها " شعراء أكثر نشاطا وأوسع شهرة أمثال شفيق معلوف والشاعر القروي رشيد سليم الخوري , ونعمة قازان والياس فرحات ورياض معلوف وسلمى الصائغ , وأسست الجماعة مجلتها الأدبية التي اتسعت للفنون الشعرية والأدبية على السواء , كما نشطت في كتابة المقالات النقدية وترجمة الأدب العربي ونشروا من الدواوين والدراسات الأدبية والنقدية والأعمال القصصية والملاحم الشعرية وقد وصل معظمها إلى الشرق" (Al-Ḥamdānī, 2014, P. 255-256) , وقد ظل اغلب جماعة المهجر الجنوبي " يجري على سنن المحافظين في الشرق , ويرى رأيهم في وجوب المحافظة على الديباجة العربية البليغة , وعلى الجزالة اللفظية , وقواعد اللغة والعروض والبلاغة . لكن من بينهم من تحرروا من ذلك فتميز نتاجهم بالجمال والقوة ؛لأنهم انطلقوا فيه على سجاياهم إلى حدّ بعيد " (Al-Nā'ūrī, 1966, P.18) ، فكان للأدب في المهجر أثره في المشرق , إذ كتب الأدباء على منواله ونهجوا سبيله وقد توثقت الصلة الفكرية والأدبية بينهما .

الأدب المهجري

يمكن أن نعرّف الأدب المهجري بأنّه : هو أدب عربي نشأة على أيدي العرب بمنأى عن انتمائه العربي , وقد تجلى هذا الأدب في جميع الأعمال الأدبية والنقدية التي صدرت عن أدباء المهجر عامة .

وقد تأثر الأدب المهجري بحركتين هما : " حركة التجديد التي تزعمها مطران في الشعر العربي منذ مطلع القرن العشرين , وحركة البعث الأدبي الأمريكي المتجاوبة مع خير ما في أوربا من الأدب , ليظهر اليوم في طابعه الإنساني ذي الشخصية القوية الحرة , كونه أدب واقعي يتجاوب مع الحضارة والحياة , ولقد تجاوب مع الحركة الابتداعية في الشعر العربي الحديث" (Al-Mun'im, 1992, p.336).

وتتجلى قيمة المدرسة المهجرية " في أنها ثارت على الموضوع الصلد المتحجر الذي يدير الشعر العربي إدارة مباشرة على موضوعات الغزل والرثاء والمديح والهجاء , ونقلته إلى أن يصبح حديثًا عن خلجات النفس والصراع الداخلي دون تزوير وافتعال , وثارت على النغم الرتيب الذي جرى عليه الشعر العربي , فلوّنت النغم الموسيقي وواءمت بينه وبين هذه الروح في سرعتها وبطئها , وتحيلت على أشدّ الموضوعات صلابة فأخضعتها للشعر , واستغلت كل طريقة ممكنة كالسرد والحوار ... في إخراج الموضوع المعقد الخفي , فكان شعرها بهذا قديرا على الإيحاء والإثارة الخفية , وغيرت هذه المدرسة في طريقة إخراج القصيدة التقليدية وذلك بأن جعلتها وحدة عضوية نامية , الكل هو الأصل فيها وبه تتم الصورة لا البيت الواحد" (Al-Samrah, 1959, p.158).

وهناك من الكتاب من يرى أنّ المذهب الأدبي الذي يشترك فيه الأدب المهجري إجمالا هو " مذهب الرومنتي الذي تأثر به المهجريون كثيراً في أفكارهم وأساليبهم , ثم المذهب الواقعي القومي , وقد كانت أساليبهم البيانية غاية في الجمال والبساطة ؛ لأنّها لم تتقيد بقيود الألفاظ المزركشة اللفظية , بل أُرسلت إرسالاً لتعبر بصدق وبساطة وحيوية عن الفكرة أو العاطفة التي تمليها (Al-Nā'ūrī, 1966, P.21), ولعل من أهم شعراء المهجر الذين ظهر على شعره طابع الفلسفة والتأمل بالكون والطبيعة والنفس الإنسانية , وتجلت جمالية الألفاظ وحسن الصياغة والتعبير , ورقة الجرس الموسيقي في شعره هو إيليا أبو ماضي , وسوف نستعرض في طريق القادم من الأوراق بعضا من تلك المظاهر التجديدية في شعره متخذين من قصيدته (الأسطورة الأزلية) مثالاً .

المحور الثّاني: لمحة موجزة عن حياة الشّاعر و القصيدة

ولد شاعرنا الكبير إيليّا بن ضاهر أبو ماضي عام 1889 م في قرية المحيدثة القريبة من بكفيّا ، و لُقبَّ شاعر المهجر الأكبر (Ya'qūb, 2004, p.209) لم تكن حياة أبي ماضي سهلة فقد ولد في عائلة فقيرة , وحين بلغ الحادية عشرة من عمره نزل مصر وفرضت عليه ظروف الحياة أن يعمل في بيع السجائر والدخان , مستغلا أوقات فراغه بالدراسة وقرض الشعر , إلا أن حياته في مصر كانت تلونها الراحة وقد قضى شطرا من عمره هناك , حتى هاجر إلى أمريكا , فلم تعد حياته كما كانت عليه في مصر , عمل فيها بالتجارة , ثم استقر عام 1916 في نيويورك (Mīrzā, 2010, p.6-8) , حيث اجتمع مع أعضاء الرابطة القلمية التي تأسست فيما بعد , ولاشكَّ أن أحرج الظروف وأصعبها هي التي تخلق أكثر المبدعين تألقًا , وأغزرهم نتاجًا , وأعمقهم فكرة , إذ تولدهم المصاعب وتصقلهم الأيام , وتمنحهم الليالي صفوة خبرتها , وتلهمهم فيض فكرها , فينشئون كباراً , هكذا ولِدَ الذي ولَـدَ للأدب (تذكار الماضي , والجداول , والخمائل , وتبر وتراب) وغيرها من عيون الآثار الأدبية .

مظاهر التّجديد عند إيليا أبي ماضي

شهد أدبنا العربي الحديث حركة تجديدية حاول بها الشعراء الخروج عمّا هو مألوف , أو ما ألفه الأدب قديما , لدواعٍ اقتضتها ظروف عصرهم والتي تختلف جذريا عن عصر من سبقهم , وإذا كان التجديد في اللغة هو من جدد الشيء : أي صار جديدا (Al-Farāhīdī, 2003, 3/330) , فهو لا يبعد عن معناه الاصطلاحي الذي يشير إلى " الإتيان بما ليس شائعا , ويكون أما بابتكار موضوعات جديدة , أو أساليب تفكير تخرج عن النمط المعروف , أو إعادة النظر في الموضوعات والأساليب وإدخال تعديل عليها حتّى تبدو للعيان مبتكرة" (Al-Kinānī, 2017, P.589-590) , وهذا ما سعى إليه شعراؤنا ومنهم أبو ماضي , إذ نلمح في شعره مظاهر تلك الحركة , وسنحاول الوقوف على تلك المظاهر في قصيدة الأسطورة الأزلية .

تعد قصيدة " الأسطورة الأزلية" من القصائد الطوال عند إيليّا , ولنا أن نقف وقفة قصيرة عند العنوان: إنّ من سمات شعراء العصر الحديث هو اختيار عنوان لأي قصيدة تُكتب , وهذا العنوان ينبئ عن مضمونها , وقد أختار أبو ماضي عنوانه هذا ليشير إلى الرابط الحقيقي القائم بين المضمون والعنوان ، فقصيدته قائمة على فن السرد أو القص , الذي يعدّ من مظاهر التجديد عند أبي ماضي , فقد شاع في شعره هذا اللون القصصي , وهذا السرد يتصل اتصالا وثيقا بالحياة ومظاهرها وعلاقة الانسان بهذه الظواهر الحياتية , فالأسطورة في مضمونها هي " حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشفّ معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان" (Sawwāḥ, 2001, P.14) كما أن هناك من يرى أن الأسطورة تلعب فيها الإلهة أو أنصاف الإلهة دورا رئيسا؛ لذا نرى أن القصيدة قائمة على تلك الحوارية بين الإنسان والإله أو الخالق, وهذه العلاقة أزلية قديمة وقائمة لا تتغير. فالأسطورة " بؤرة إشعاع تغذي الحضارة الإنسانية , وفي العصر الحديث صارت الأساطير مصدرا خصبا للأدب شعره ونثره , بل أضحت منهجا وتياراً سلكه الشعراء بطرق مختلفة مستفيدين منها في أبعاد فنية ومعنوية " (Al-Miqdād, 2015, P.135) وقد تجلت مظاهر التجديد عن شاعر المهجر الأكبر بـ :

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية

1_ الاتجاه الفلسفي

طالما عُرف أبو ماضي بتأملاته الفلسفية في الحياة , فكل شيءٍ عنده هو مصدر تساؤل وإلهام , فهو لا يقف عند حدود مظاهر الأشياء , بل يستغرق بفكره ليصل إلى بواطنها , فالحياة بكل ما فيها من خير وشر , هدوء واضطراب , خوف وأمن , كلها ترتبط بالشاعر كما ترتبط مظاهر الحياة ببعضها , فتتولد في نفسه التساؤلات عن الوجود والحياة والطبيعة , ولعلّ قصيدة الأسطورة الأزلية واحد من القصائد التي أفرغ فيها تأملاته الفلسفية وتساؤلاته الفكرية, ونلحظ أنّ القصيدة قائمة على مجموعة من الثنائيات الضدية المتناقضة مع بعضها , منها (الشباب والكهولة , الصحة والمرض , الغنى والفقر , الجمال والقبح , العلم والجهل) وهي تمثل أطوار الحياة بمختلف أحوالها والتي يعيشها الإنسان عبر وجوده فيها , وقد بدأها كما تبدأ الحكايات بـ كان , في قوله : (Mīrzā, 2010, P.668)

كان زمانٌ , لم يزل كائنا وحالةٌ , ما برحت باقيــهْ

ملَّ بنو الإنسان أطوارهم وبرموا بالسُّقم والعافيـــهْ

فاستصرخوا خالقهم واشتهوا لو أنَّـه كـوَّنـــهم ثـانيــهْ

وبلغت أصواتُــهُـم عرشـه في ليـلةٍ مقمـرةٍ صـافيـهْ

فقال : إنّي فاعلٌ ما اشتهوا لعلَّ فيـه حكمــةً خـافيـهْ

وشاهـدوه هـابطاً مـن عـلٍ فاحتشدوا في السَّهل والرابيهْ

من القرى القـانعة الطـاوية والمُدنِ الجـامحة الغاديـهْ

يُسابق الصُّعلوك رب الغنى والأبلـه البـاقعة الدَّاهيـــهْ

ويدافع الشّيخَ التوى عوده وصار مثل الرَّمّــة الباليهْ

فتى مضى الفجر ولمّا تزل روعته في وجهه بــاقيــهْ

وتزحم الحسناء ممكـــورة خلّابة كالـروضةِ الحاليـةْ

دميمةٌ تشـــبه في قبحها مدينـة مـهجـورة عـــافيـه

فهو يصور ثورة الإنسان على الطور أو المرحلة التي يعيشها , وتبرّمه منه , فهم يستصرخون خالقهم الذي يهبط من عرشه ليستمع إليهم , فيحتشدون حوله ويجتمعون , ثم يضع مجموعة تساؤلات على لسان الخالق عن سبب ثورتهم وتبرمهم نحو (Mīrzā, 2010, P.668):

فقال ربُّ العرشِ: ماخطبكم ؟ ما بالكم صرخاتكم عاليـةْ

هل أصبحت أرضكم عـاقرا أم غارت الأنجم في هاويةْ

أم أقلع الماء فلا جـــداول وماتت الطّيرُ فلا شاديـــةْ

أم فقـــدت أعينُـكم نـورها أم غشيت أرواحـكم غاشيةْ

التساؤلات التي يثيرها الشاعر تخص مضامين الحياة وسر ديمومة الإنسان فيها , ونلحظ استعارته لفظة عاقر للأرض للدلالة على تحولها إلى قفار يابسة , أو لربما تلاشت أنجم السماء , أو أن الماء أصابه الشح فلم تعد هناك جداول ولم تعد هناك طيور تغني وتصدح بأصواتها , أو أنهم فقدوا النور الذي يبصرون به , أو أصابت أرواحهم المصائب , فتلك الأمور هي ما يمكن أن يكون سببا للتبرم والتذمر , ثم يعرض الشاعر ما دعا الناس إلى الثورة عندما تحدث على لسان الفتى في قوله (Mīrzā, 2010, P.669):

قال الفتى: ياربِّ إنّ الصبا مصدرُ أحـزاني وآلامـي

ألبستنيه مونـقًا بعـدمـــا أبلاه أخـوالـي وأعمـامي

فاختلفت حالي وحالاتهم كأنّني في غـير أقـوامي

بدأ الشاعر بأول أطوار الحياة عند الإنسان وهو طور الصبا أو الشباب , وهذه المرحلة تعدّ مرحلة القوة والعنفوان والآمال والأمنيات , لكن ما يعرضه الشاعر هو تبرّم صارخ يبديه المرء تجاه هذه المرحلة , فيجعلها مرحلة الآلام والأحزان , ويصور حالة القطيعة الفكرية , والغربة الروحية التي يمكن أن يعيشها المرء مع من حوله , التي تمثلت في قوله (Mīrzā, 2010, P.669):

وصرتُ كالجدول في فدفدٍ أو شاعـر ما بين أصنامِ

دنيــاهم دنيـاي , لكنّما أعلامهم ليسـت كأعلامـي

فصار الصبا عبء ثقيل , مما يدفع المرء إلى الطلب من الخالق أن يأخذه ويأخذ قلبه وما يحتوي من آمال استحالت إلى مصدر شقاء (Mīrzā, 2010, P.669):

عبء على نفسي هذا الصبا الجائـش المُستوفـز الطّامي

خذه وخـذ قلبي وأحلامـه فإنّني أشقــى بأحــلامـــي

ثم يتحول الشاعر إلى تصوير الطور الثاني من حياة الإنسان , وهو الشيخوخة التي يكون فيها المرء قد أكمل تجاربه وعرف الحياة وأسرارها , حتى صار حكيما عليما بها , لكن مع ذلك كله يظهر تبرّمه وضجره , ومع ما يحصل عليه الإنسان في هذه المرحلة , بالمقابل تذوي قوته , وتضعف صحته , ويحن إلى عصر الشباب , فيقول (Mīrzā, 2010, P.669):

وجاء شيخٌ حائرٌ واجفٌ مشتعلُ اللّمَّة بالي الإهــابْ

كأنّــما زلـزلـة تحــتــــه لمِا به من رعشة واضطـرابْ

فصاح: ياربِّ خذ حكمتي واردد على عبدك عصر الشبابْ

وما أن ينتهي من ثنائية ضدية , حتى ينتقل إلى أخرى , فنراه يتحدث عن مسألة الجمال والقبح , ويعرض هذه المسألة على لسان حسناء تشقى بحسنها الذي صار مرعى لعيون العباد , وإنّ حظها من ذلك الحسن هو كحظ شجر السرو , الذي ينعم غيره بفيئه , أو الطائر الذي يطرب على صوته السامع , أو النجم يأنس الناظر بضيائه ثم ما يلبث أن يطويه النهار, كذلك الحسناء فليس لها من حسنها سوى الشقاء المتمثل بما تعانيه من ريبة , فيقول (Mīrzā, 2010, P.670):

وقالتِ الحسّناءُ: ياخالقي وهبتني الحُسـن فـأشقيتـني

وجهي سنيٌّ مشرقٌ , إنّما مرعى عيون الخلق وجهي السني

حظّي منه حظُّ ورد الرُّبــى مـن عطره الفـوّاح والسوسـنِ

ومثل حظِّ النَّجم من نـوره في الحندس المعتكر الأدجـنِ

للقائل , الفيءُ , وللسامـع التَّغريـد , والزهـرةُ للمجـتنــي

كم ريبــة دبَّت إلــى مضجعي من الجمــال الرَّائــع الممكـنِ

ثم ينقل على لسان الجارية ما تعانيه من ازدراء وسخرية بسبب شكلها , التي لم يكن لها ذنب فيه, وإن الذي يزدريها هو يسخر من الخالق الموجد لكل شيءٍ , فتطلب إما أن يكون الحسن رداء لها أو لا تكون ، فيقول (Mīrzā, 2010, P.671):

وسكتت ؛ فصاحت الجارية باكيـة من بؤســها شاكيــهْ

ذنبــي إلى هذا الورى خلقتي فهل أنــا المجرمــة الجانـيهْ؟

إنْ أخطأ الخزَّاف في جبله الـ طين فــأيُّ ذنبٍ لــلأنيـــــهْ

أليـس من يسخـر بي يزدري بالقُـــوّة المُوجـــدة البـــاريهْ

فليكــن الحـــسن رداءٌ لهــا ترفل به , أو فلتـكن عـــاريهْ

ثم نقف عند ثنائية أخرى عرض لها الشاعر في أسطورته , وهي ثنائية الغنى والفقر , وهذه الثنائية طالما كان لها الأثر الكبير على نفوس الناس , فالفقير يشقى في حياته بسبب فقره الذي يقتل آماله , ويعكر صفو أيامه , ويشعره أنّه يعيش مأسورا لمن يملك المال , فيقول (Mīrzā, 2010, P.673):

وأقبل الصّعلوك مسترحماً في مقلتيـــهِ شبح اليــأسِ

يصرخُ يـــا ربّاه حتَّى متـى تُحكِّـمُ المـوسر في نفسي

وتضع التّــاج على رأســـه وتضـع الشّوك على رأسي

ويشرب اللّذات من كأســـه وأشرب الغصَّاتِ من كأسي

يا ربِّ لا تتقله عن انـــسه وإنما انقلنـــي إلى أنـــسِ

فــإن تشأ أن لا يذوق الهنا قلبي فجرّدنــي من الحــسِ

وعلى النقيض منه صاحب الثروة والغنى , فهو ليس راضيا عن حاله والنعيم الذي هو فيه ,على الرغم من أنّه أنفق عمره بغية الحصول على ما يتمناه , فيقول(Mīrzā, 2010, P.673) :

وقال ذو الثروة: ما أشتهي لا أشتهي أنــي ذو ثــروةِ

أنفقت أيـــامي على جمعها وخلتني أدركــت أمنيــتي

فاستعبدتني في زمان الصبا و أوقرت بالهمّ شيخوختي

قد ملكتــني قبلما حِزتــها وملكتني وهــي في حوزتي

وحول المال إلى راحـــــة وحول القصر إلى خيــمةِ

نقف على آخر ثنائية عرضها الشاعر في أسطورته وهي ثنائية العلم والجهل , والتي جاءت على لسان الأبله والأديب , فالأبله لا يرى أن هناك قصد من خلقه إذا لم يكن له لبٌّ كباقي الناس فهو يشترك معهم في شكلهم وحاجتهم إلى المأكل والمشرب والرقاد فقط , فيقول (Mīrzā, 2010, P.673):

وصـرخ الأبلـــه مستفسراً ما القصدُ من خلقي كذا والمرادْ ؟

ألم يكن يكمل هـذا الـورى إلا إذا أوجـدتـني في فســـادْ؟

لي صورة النَّاس وحاجاتهم من مطعم أو مشرب أو رقـــادْ

لكن لُبي غيــر ألبـــابهــم فـــإنــه مكتنـــف بالسّـــوادْ

إن كنتُ إنســانا فلم يا ترى لستُ بإدراكي كبــاقــي العبــادْ

ثم يصور حال الأديب وعنائه , فيقول (Mīrzā, 2010, P.674):

وجاء بعـــد المستـريب الألـمعـــي العبقري اللّبـــيبْ

فقال : إنّـــي تـائهٌ حـائرٌ أنــا غريب في مكانٍ غريبْ

أبحث عن نفسي فلا أهتدي وليس يهديـــني إليها أريـــبْ

أنا عليم حيث لا عـــالـــــم أنا لبيـــبٌ عن غيـر اللّـبيبْ

لو أنني كـــنتُ بلا فطنـــــةٍ سرتُ ولم تكثُر أمامي الدروبْ

ما العقل يا ربِّ سوى محنةٍ لولاه لم تكتب عليّ الذنـــوبْ

وبما أنّ الأسطورة بطبيعة حالها قائمة على حوارية سردية فمقتضى السرد أن تكون هناك خاتمة, متضمنة لطف الخالق في سماع شكاية الخلق, فيقول(Mīrzā, 2010, P.674) :

لمّا وعى الله شكايا الورى قال لهم : كونوا كما تشتهون

فاستبشر الشيخ وسرّ الفتى والكاعب الحسناء والحيزبون

لكنّهم لمّا اضمحل الدّجى لم يجـــدوا غيـر الذي كانـــا

إلا أن الشاعر بعد عرض تلك الثنائيات جاء ليقرر أنه لا خير ولا شر , ولا فقر ولا غنى , ولا جمال ولا قبح , ولا بلادة ولا ذكاء , ناقضا كل ما بنى عليه أسطورته من متضادات فيقول (Mīrzā, 2010, P.674):

هم حدّدوا القبح فكان الجمال وعرّفوا الخير فكان الطّـــلاح

وليس من نقص ولا من كمال فالشّوك في التحقيق مثل ألأقاح

وذرة الرمـــل كـكل الجـــبال وكـــالذي عـزّ الّـذي هـــانـــا

فبين أبو ماضي أنّ ما يراه المرء أحيانا قبيحا قد يكون جميلا , وما يراه البعض شرا قد يكون خيراً , فليس ثمة شيء كامل , فالحياة بتشعبها وتعقدها قائمة على المتناقضات , ولا تمنح الكمال لأحد , بل أن عدم الكمال كمال أحيانا .

2_ الطبيعة

شكلت الطبيعة عنصرا رئيسا عند شعراء المهجر , فلا نكاد نقرأ قصيدة تخلو من ذكر الطبيعة ومفاتنها , فهم يرون " كل ما فيها أشياء حية تحب وتكره , تسعد وتشقى , تفرح وتحزن , وترجو وتخيب ؛ لذلك يناجونها ويستلهمونها ويتمثلون بها ويبثونها آمال قلوبهم وآلامها , وأشواق نفوسهم وحيرتها" (Al-Nā'ūrī, 1966, P.98), وقد استطاع إيليا أن يوظف الطبيعة في قصائده توظيفا رائعا , فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الطبيعة , كيف لا وهي مصدر حياة وإلهام؛ لذا تمازجت الطبيعة في أسطورته الأزلية تمازجا واضحاً, كما في قوله (Mīrzā, 2010, P.669):

وصرتُ كالجدول في فدفدٍ أو شاعرٍ مابين أصنام

عنـدهم الروضة أشجـارها والروض عندي الزّهر النامي

والطير لحـمٌ ودمٌ عنـدهـم وليس عنـدي غير أنغـــامِ

سُكري بها أو بالنّدى والشّذى وسكرهم بالخمـــر من الجـامِ

نلحظ اختلافه عن الآخرين في نظرته إلى الطبيعة , فهو لا يراها كما يراها غيره , فهو كما ذكرنا لا يقف عند حدود الأشياء الظاهرة , وإنّما يغوص إلى أعماقها , فيذهب فيها إلى أبعد ما يكون , فيتخذها أداة يرسم بها لوحاته الأدبية , لتكون طرف تشبيه يظهر ما يريده من معنى كذلك نلحظ قوله (Mīrzā, 2010, P.670):

إن أماني الروح أزهارها وإن روحي اليوم قفرٌ بباب

لا جدول , لا بلبلٌ منشدٌ, بلى , بها الوحشةُ والاكتئاب

نلحظ أن الشاعر استعمل ألفاظ الطبيعة بما تعكسه من معانٍ لبيان مقاصده , فالأزهار بما تحمله من رمز للرقّة والترف و التفائل استعارها للأماني , لا سيما أنها تتوافق مع لفظ الروح , واستعار لغياب تلك الأماني لفظ "الفقر " بما يعكسه من يأس وانطفاء فالطبيعة حاضرة عند الشاعر بكل حالاتها.

كما استعمل الشاعر صورة تشبيهية تتمثل في قوله(Mīrzā, 2010, P.670) :

صحوت من جهلي فأبصرتني كأنني سفينة في العباب

قيل لها , في البحر كلّ المُنى فلم تجد في البحر إلا الضباب

نأت عن الشطّ ولم تقترب شبرا من السر الذي في الحجاب

فالشاعر يشير إلى المعاني بأساليب متعددة, واستعمال لفظ الضباب دلالة على (اللاشيء) , والسعي من دون هدف يرتجى.

3_اللغة و الأسلوب

لطالما كانت اللغة هي الميدان الفسيح الذي يتبارى فيه الإنسان للتعبير عن مكنونات نفسه وبنات أفكاره , كما أنها وسيلة التواصل و التعالق بين أبناء المجتمع الواحد , وأداة للاطلاع على ثقافات الأمم الأخر , وتشكل المفردة أو اللفظة الركيزة الأساس في بناء هرم اللغة , تلك اللغة التي طالما شغلت الحيز الكبير عند أدباء المهجر, إذ مما يلاحظ على الشعر المهجري " أنّ أصحابه توخوا الكلمات الموحية والألفاظ السائغة السهلة , وهذا لا يعني أنهم هدفوا إلى استعمال الألفاظ العامية وتبنوا العبارات الهابطة , فعلى الرغم من وجود ألفاظ من هذا القبيل , إلا أنّهم قد هدفوا إلى الألفاظ السهلة والعبارات البسيطة" (Al-Ḥamdānī, 2014, P. 292), فقد كان الشعراء المهجريون " يتغنون بشعر رقيق الألفاظ لا أجراس فيه ولا طبول , سواء أطال فيه النفس أم قصر , وسواء أكان في مواضيع غنائية وجدانية أو في مواضيع اجتماعية أو تأملية , ولم يكن ذلك عن ضعف أو هربا من تكاليف الشعر , فقد رسخ في عقيدتهم أن الشعر فنُّ الحياة " ,Al-Nā'ūrī, 1966) (P.103-104, وهذا ما نلمسه عند أبي ماضي بشكل عام , وفي أسطورته بشكل خاص , فألفاظه وأن أتسمت بالرقة والبساطة والقدرة على التعبير , إلا أن ما يميزها, أنّها نتاج تأمل فكري عميق في أطوار الحياة ؛ لذلك نجد فيها بعدا عن لغة العاطفة التي هي سمة بارزة في الشعر , كما أنها تكاد تخلو من الصور البيانية العميقة الدلالة , وما هو موجود لا يخرج عمّا هو مألوف , علماً أنها جاءت بأسلوب جزلٍ رصينٍ , كقوله : (Mīrzā, 2010, P.671).

و تضع التاج على رأسه وتضع الشوك على رأسي؟

ويشرب اللذات من كأسه وأشرب الغصات من كأسي

وتتجلي الأنجم في ليله ضاحكة كالغيد في عرسِ

ويتوارى في نهاري السّنا أو يتبدّى حـانق الشَّمس

فالشاعر لبيان حالة النعيم والترف استعار لفظة " الضحك" للأنجم ثمّ شبهها بالحسناء في عرس وخصّ مناسبة العرس بالذكر لما فيه من فرح وسرور ، وهذه صورة قريبة جدا للذهن لا تعقيد فيها، بينما استعار لفظ " حانق" لحالة البؤس والتعب، فالفقير يشعر أن نهاره أما يختفي منه الضياء أو يظهر بيد أنه يظهر حانقا.

على الرغم من أن قصيدة الأسطورة قائمة على المقابلة بين حالين متناقضين بيد أننا نلمس المقابلة هنا كفنٍ بلاغي , فقد أشار الشاعر إلى الحالين دالا على النعيم والرخاء بألفاظ " التاج , اللذات , تجلي الأنجم ضاحكة " ودلّ على ما يقابلها من بؤس وشقاء بألفاظ "الشوك , الغصات , وتوارى السنا" وقد جاءت تلك المقابلة بلفظ سهل جزل واضح من دون تعقيد وغموض.

أو قوله : (Mīrzā, 2010, P.672)

كم من فقيرٍ مـرَّ بي ضاحكا كــأنّما يسـخر من غصـتي

رأيته بـــالأمس من كـــوتي فخلتني أنـــظر من هـــوةِ

وكنت كالحـــوت رأى موجـةً ضاحـــكة تـرقصُ كـالطفلةِ

أو حيّـة تـــــدبُّ في منجـمٍ تـــرنـو إلى فراشة حـــرةِ

4_ البحور الشعرية(الأوزان و القوافي)

عُرف شعراء المهجر بميلهم إلى التنوع بالأوزان والقوافي , ولم يقفوا موقف الملتزم بها كما فعل الشعراء الملتزمون بالنهج القديم , فمالوا إلى البحور القصيرة ذات الإيقاع السريع بدلا من البحور الطويلة ؛ لتواكب روح العصر أولا , ولما فيها حرية التعبير ثانياً , وهذا واضحٌ في أسطورة أبي ماضي التي جاءت على البحر السريع ونلحظ ميل الشاعر إلى التنويع بالقوافي , ومردّ هذا التنوع طبيعة التجديد عند شعراء المهجر وثورتهم في الخروج على نظام القافية الموحدة التي كانت عليها القصيدة العربية , ويعود هذا إلى طبيعة عصرهم وظروفه , الذي يختلف كما ذكرنا سابقا عما سبقه من عصور .

كما يمكن أن نعزو سبب هذا التنوع إلى إننا نقف أمام نصّ قصصي شعري , فالأسطورة مكونة من مقطوعات تتناول كل واحدة منها سرد طور معين من أطوار الحياة , فطبيعة السرد , والموضوع , وجوهر الحالة الشعورية المعبر عنها , اقتضى هذا التلون في القافية , كما أن تعدد القوافي هو دليل عملي تمكن الشاعر وطول نَفَسَه الشعري , فجاءت متنوعة مابين قافية يائية , وقافية ميمية , وقافية نونية , وقافية سينية , وتائية , ودالية , وقد تمثلت في قوله (Mīrzā, 2010, P. 668) :

كان زمانٌ لم يزل كائن ا وحالةٌ ما برحت باقيــهْ

فنلحظ أنّ الشاعر بدأ بالقافية اليائية في بداية اسطورته التي استعرض فيها شكاية البشر وتبرّمهم وعدم رضاهم، ثم عدل إلى القافية الميمية في قوله (Mīrzā, 2010, P. 669) :

والأخضر المورق في يابسٍ أو مثل صاح بين نـوّام

ثم ينتقل إلى القافية البائية لبيان الثنائية الضدية بين المشيب والصبا كما في قوله : (Mīrzā, 2010, P. 669) : وجاء شيخ حائر واجف مشتعل اللمّة بالي الإهاب

وفي بيان حال الفقر والغنى عمد الشاعر إلى قافيتين مختلفتين هما: السينية في بيان حال الفقر، وهذا ما يلحظ في قوله: (Mīrzā, 2010, P. 671) :

وأقبل الصعلوك مسترحما في مقلتيه شبح اليــأس

بيد أنه في بيان حال الغنى جاء بالقافية التائية وذلك في قوله (Mīrzā, 2010, P. 672) :

وقال ذو الثروة : ما أشتهي لا أشتهي أني ذو ثـروة

كما أن الشاعر جمع بين قافيتين مختلفتين؛ لبيان حالين متضادين أو متناقضين أيضا هما الأبله والأديب، فقد استعمل القافية الدالية في بيان حال الأبله وذلك في قوله (Mīrzā, 2010, P. 673) :

وصرخ الأبله مستفسرا ما القصد من خلقي كذا والمراد

بينما استعمل القافية البائية في بيان حال الأديب وذلك في قوله (Mīrzā, 2010, P. 673) : وجاء بعد المستريب الألمعي العبقري اللبيب

ثمّ ختم الشاعر اسطورته بالقافية النونية كما في قوله (Mīrzā, 2010, P. 673) :

لما وعى الله شكايا الورى قال لهم: كونوا كما تشتهون

فاستبشر الشيخ وسرّ الفتى والكاعب الحسناء والحيزبون

ومما سبق يتبيّن لنا أن الشاعر قد خرج عمّا هو مألوف في القصيدة العربية التي كانت تقوم على قافية واحدة وموضوع واحد، فلم تعرف القصيدة تعدد القوافي ولا تنوع الضدّيات أو بالأحرى التأمل الفلسفي للكون على هذا النحو الذي نجده عند إيليا.

الخاتمة:

بعد هذا العرض لنشأة شعر المهجر , وبيان مناح الإبداع عن أحد شعرائه وهو أيليا أبي ماضي شاعر الطبيعة , خرجت الدراسة بمجموعة نتائج تشكل إيجاز لما مر تفصيله منها :

1_ بناء القصيدة على الأسلوب القصصي أو السردي المعتمد على الحوار, وهو أسلوب يخلق عنصر التشويق , فضلا عن أن أسلوب السرد يوفر مساحة تعبيرية أكبر، وبالنتيجة حرية أكبر .

2_ التأمل الفلسفي الذي شاع بين شعراء المهجر عامة , وعند أيليّا خاصة , فكثير ما كانت تعبر قصائده عن فلسفته في الحياة , أو نظرته حول الكون والوجود .

3_ ظهرت ملامح الطبيعة واضحة وجلية في أسطورته , فقد كانت تشكل عنصرًا مهما عنده , فالطبيعة تعني الحياة بكل مفاصلها مفاتنها .

4_ مال شاعر المهجر إلى اللغة المباشرة التي خلت من العاطفة , كذلك اعتمد الأسلوب المباشر في التعبير

5_ تنوع الأوزان والقوافي في القصيدة، مما أظهر براعاته الشعرية ومنحه الحرية التي ينشدها.

6- استطاع الشاعر أن يجمع مظاهر التجديد التي عرفها الشعر المهجري في قصيدته.

7- تعدّ القصيدة تعبيرا عن نظرة الشاعر والناس على حد سواء على الرغم من إيليا معروف بنظرته الفلسفية وتشهد له بذلك قصيدة الطلاسم.

References

Al-Dāyim, Ṣābir. (1993). *Adab al-mahjar*. Miṣr : Dār al-Ma'ārif.

Al-Farāhīdī, al-Khalīl ibn Aḥmad. (2003). *Al-'Ayn*, taḥqīq : 'Abd al-Ḥamīd Hindāwī. Bayrūt : Dār al-Kutub al-'Ilmīyah.

Al-Ḥamdānī, Sālim, wa-Muṣṭafá, Fā'iq. (2014). *Al-adab al-'Arabī al-ḥadīth : dirāsah fī shi'rih wa-nathruh*. Qum, Īrān : Dār Zayn al-'Ābidīn.

Al-Kinānī, Najāt 'Alwān. (2017). *Ẓāhirat al-tajdīd fī al-shi'r al-'Arabī*. Majallat Abḥāth al-Baṣrah lil-'Ulūm al-Insānīyah, al-mujallad 42, al-'adad 5, al-'Irāq.

Al-Miqdād, Ḥamzah Ḥusayn. (2015). *Ḥarakat al-tajdīd fī al-shi'r al-'Irāqī al-ḥadīth*. Bayrūt : Dār al-Kātib al-'Arabī.

Al-Nā'ūrī, 'Īsá. (1966). *Adab al-mahjar* (Ṭ. 3). Miṣr : Dār al-Ma'ārif.

Al-Samrah, D. Maḥmūd. (1959). "Naqd Kitāb al-shi'r al-'Arabī fī al-mahjar". *Al-'Arabī*, al-'adad 5, al-Kuwayt.

Mīrzā, Zuhayr. (2010). *Dīwān Īliyā Abū Māḍī*. Bayrūt, Lubnān : Dār al-'Awdah.

Na'īmah, Mīkhā'īl. (1978). *Al-ghurbāl* (Ṭ. 2). Bayrūt, Lubnān : Mu'assasat al-Nawfal.

Sawwāḥ, Firās. (2001). "al-usṭūrah wa-al-maʿná". *Fī al-asāṭīr* : Dirāsāt wa-taḥlīlāt (Ṭ. 2), Ṣafaḥāt 55-76). Dimashq : Dār ʿAlāʾ al-Dīn.

Yaʿqūb, D. Imīl. (2004). *Muʿjam al-shiʿr mundhu ʿaṣr al-Nahḍah*. Bayrūt : Dār Ṣādir.